

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 15 (2011) : 386 - 398
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

الحركية الثقافية والسياسية في منطقة الساورة خلال النصف الأول من القرن 11هـ/17م

بلاغ عبد الرحمان
جامعة بشار

إن الدراسات التاريخية للمجال الجغرافي « واد الساورة» في الفترة الحديثة، تكاد تكون منعدمة، رغم أهمية المجال في إطار العلاقة بين صحراء المغربين، الأوسط والأقصى من جهة، والسودان الغربي من جهة ثانية؛ فمعظم دراسات الفترة الوسيطة والحديثة، عندما تتحدث عن المغرب الأوسط، نجدها تهمل بشكل أو بآخر هذه المنطقة، إما لجهل بدورها في التواصل بالجوار، أو لقلة المادة التاريخية المتوفرة.

لذلك سأحاول في هذه المداخلة، معالجة الحركية السياسية والثقافية في منطقة الساورة، خلال النصف الأول من القرن 17م، من منظور الإشكالية التالية: ما هو واقع التفاعلات السياسية بمنطقة الساورة، خلال النصف الأول من القرن 17م؟ وكيف ساهمت المنطقة في التغيير السياسي، فيما وراء واد ملوية؟ ثم ما هو طابع ومواصفات الحركية الثقافية؟ وإلى أي حد ساهم أعلام المنطقة في الفعل الثقافي المحلي، وفي تواصلهم مع الجوار؟

لكن قبل الخوض في الموضوع أريد أن أقف على بعض الملاحظات:

- الدراسات والأبحاث التاريخية التي تتناول العلاقات التجارية ومسالك القوافل التجارية والحجية، المتجهة من وإلى السودان الغربي ومنطقة تافيلالت في المغرب الأقصى نجدها تتجاهل الحديث عن منطقة الساورة، وكأن هذه القوافل تخطت بطريقة أو أخرى هذا المجال الجغرافي.
- كما أن بعض الدراسات تتحدث عن العلماء والفقهاء الذين جابوا مدن المغربين الأوسط والأقصى، من تلمسان إلى توات وتافيلالت، دون الإشارة إلى قرى وادي الساورة أو أعلامها، رغم أنها محطة للقوافل، وتحتضن مراكز علمية مثل (بني عباس – كرزاز)، خلال الفترة التاريخية المدروسة.
- زيادة على ذلك أن بعض الدراسات، لا تتحدث عن المنطقة إلا في إطار النفوذ المغربي،كأن المنطقة ليس لها شخصية إلا في هذا الإطار.

في البداية أشير، إلى أن المنطقة لم تنل بعد اهتمام الباحثين والدارسين، والدليل قلة الدراسات التي تهتم بتاريخ المنطقة، في الفترة الحديثة، فما بالك بالفترة الوسيطة، بينما الدراسات التي تتناول فترة ما قبل التاريخ، نجد كتابات الفرنسيين، إما في شكل تقارير أو دراسات، تتناول الكتابات الحجرية المشاهدة، خاصة في منطقة مرحومة التابعة اليوم إداريا لدائرة بني عباس؛ كما أن أبا العباس احمد بن عبد الله القاضي بن أبي محلي السجلماسي، نزيل واد الساورة، كتب أغلب مؤلفاته بهذه المنطقة، لكن لما ورد عن المنطقة قليل مقارنة بما كتب – على الأقل فيما نشر من كتاباته –كما أن عبد الكريم بن أمحمد البكري، تحدث في رحلته عن مدينة بني عباس من قرى الساورة، ومن لقي بها من العلماء، وجاء ذكر قرى واد الساورة في رحلة العياشي، وهي كتابات تعود إلى النصف الأول من القرن 11ه.

وإذا رجعنا إلى تاريخ منطقة الساورة خلال النصف الأول من القرن 11ه/17م، نصطدم بقلة المادة التاريخية المعروضة، إلا ماورد في بعض الرحلات والفهرسات، ونحن ندرك تماما– وهذا ليس سرا– أن ما نشر القليل، وما هو مخبأ في الخزانات العائلية من مخطوطات، كفيل بإماطة الغبار وتجلية الحالة الثقافية والسياسية في المنطقة خلال هذه الفترة على الأقل.

ويشير ابن خلدون في كتابه إلى واد الساورة، في إطار حديثه عن أودية بلاد المغرب، في قوله: و(واد آخر كبير ...ينحدر إلى القبلة مشرقا بعض الشيء إلى أن يصب في الرمل دون تيكورارين، وفي قبلتها وعليه من جهة المغرب قصور توات ثم بعدها تمنطيط ثم بعدها وركلان)[1]، ويقول في موضع آخر، (وينبع من هذا النهر – واد ملوية– نهر كبير ينحدر ذاهبا إلى القبلة،... ويقطع العرق على سمته إلى أن ينتهي إلى البردة[2]... ويسمى لهذا العهد كير وعليه قصورها... ثم يمر إلى أن يصب في القفار... ويغور في رمالها، وهو موضع مقامه قصور ذات نخل تسمى وركلان)[3]، من خلال نص ابن خلدون يتضح لهذا العهد أن لفظ الساورة لم يكن متداولا حينها في القرن 9ه/15م، وأن النهر كان يسمى بكير وهو يمثل احد روافد واد الساورة، كما نجده ينعته بالنهر الكبير، وهي دلالة على غزارة مياهه، خلافا لما هو عليه الآن، كما نجد المجال الجغرافي لمنطقة "الساورة" عند عبد الرحمن ابن خلدون، لا يتوقف عند المجال الذي حدده الرحالة أبي سالم العياشي، وإنما يجعل مجاله من واد زيز، إلى ورقلة، لما كان عليه حينها من غزارة الماء. ويسميه وطن توات، ويؤكد ذلك في قوله عندما يتحدث عن قبيلة بني وماتو من مغراوة: (ومواطنهم متصلة قبلة المغرب الأقصى،... واختطوا مواطن القصور... فمنها على ثلاث مراحل قبلة سجلماسة ويسمى وطن توات، وفيه قصور متعددة... وآخرها من جانب المشرق يسمى تمنطيت)[4].

أما منطقة الساورة في الفترة المدروسة، هي المجال الممتد من مكان التقاء وادي قير أو كير و زوسفانا عند منطقة إكلي، والتي تبعد حوالي 150كلم عن مدينة بشار، إلى غاية مشارف منطقة إدرار، على طول 330كلم، وإن كان بعض يطلق عليه ابتداء من واحة القصابي واد مسعود، وتشير الدراسات التي أعدها كل من BOULE Mercellin و VAUFREY Raymond أن منطقة الساورة كانت مأهولة وعرفت حضارات في فترة ما قبل التاريخ.

كما نقرأ من خلال الرحلات أن منطقة واد الساورة في بداية الفترة الحديثة، حسب العياشي، تتشكل من عدة قرى وواحات على طول الواد المذكور، تسيير فيها الركب مدة عشرة أيام[5] إلى مشارف توات، وأولى قرى الوادي منطقة إيجلي ثم مازر، ثم قرى بني عباس الثلاث، ذات نخل وفاكهة وبساتين حسنة وفيها ساقية من الماء الجاري العذب[6]، ثم قرية بشير، ثم منطقة الغابة[7]، وهي مجموعة من القرى ذات نخل كثير وهي المعروفة اليوم باسم الواتة، علما أن هذا الاسم وكذا الموضع يحمل عدة إشارات ستكون محل دراسة – إن شاء الله–، بعدها موضع فم المدفع، ثم قرية بني يخلف، وزاوية سيدي أحمد بن موسى، ومنها إلى موضع الطويل، وقرى أولاد رافع، وتمغارن، والقصبات وتعرف اليوم بالقصابي، ومن هنا ينعطف الواد ويغور في الرمل[8]، وبذلك حسب الرحالة أبو سالم العياشي ينتهي واد الساورة، الذي يصفه أنه أطول أودية المغرب، وأقلها فائدة وأكثرها مخافة[9] وفي ذلك إشارة إلى نقص جريانه، وكثرة نباتاته فضلا عن انتشار اللصوصية فيه، في حين يصفه ابن أبي محلي، بالواد المبارك أمنه الله وقدس موارده[10].

هذه المجال الجغرافي الذي استمد حيويته وديمومته من واد الساور[11] كما سماه عزيز سالم التر، أو الساورة والأساور كما سماه العياشي، كان محط استقرار للإنسان المغاربي منذ ما قبل التاريخ والرسوم الصخرية من على جنبات الواد تؤكد ذلك، كما أن الحركية التجارية حملت معها بعد ذلك الدعوة إلى الإسلام، وحملة الفاتح عقبة بن نافع الفهري على بلاد المغرب التي وصل بها توات[12]، قد حطت رحالها بهذه المناطق.

تتحدث كتب التاريخ عن العلاقة بين تيهرت عاصمة الرستميين والدولة المدرارية بسجلماسة، وكيف استطاع أمير هذه الأخيرة اليسع بن أبي القاسم ت 823/208م، أن يبني دولة ذات جيش دوخ به بلاد الصحراء[13]، وفي ذلك أشارة إلى محاولاته للسيطرة على منطقة الصحراء، بما فيها الساورة وهي التي تبعد عن سجلماسة خمسة أيام فقط، كما أن منطقة الساورة شهدت حراكا عسكريا في إطار الصراع الفاطمي – المدراري، سنة 296هـ ثم حملة مصالة بن حبوس المكناسي 302هـ[14]، وحملة جوهر الصقلي قائد جيوش المعز لدين الله الفاطمي سنة 347هـ/958م[15]، ولاشك أن هذه الحملات المترددة من

وإلى سجلماسة، من إفريقية تكون قد اتخذت طريقا بالمغرب الأوسط، خاصة إذا علمنا أن المغرب الأقصى، كان مناهضا لسلطة الفاطميين وكان الصراع على أشده بين الفريقين، دون أن نتغاضى عن العلاقة المدرارية –الرستمية، التي كان واد الساورة مسلكا لها.

أن منطقة الساورة وما حولها خلال القرن السابع الهجري، كانت محط اهتمام الزيانيين بقيادة يغمراسن، خاصة وأنها حسب ابن خلدون، كانت مجال قبائل ذوي عبيد الله و ذوي منصور من عرب المعقل[16]، التي تغلب عليها، يحي بن عبد الحق المريني، فسارع يغمراسن إلى ضمها مع سجلماسة ففشل في الحملة الأولى عام 655هـ، ونجح في حملته الثانية سنة 662هـ، بعد أن انحاشت إلى جانبه عرب المعقل، لكن ملكه لم يدم، إذ تمكن أخوه يعقوب بن عبد الحق من السيطرة عليها سنة 673هـ، وفي ذلك يورد أبن خلدون:(ولما استفحل شأن بني عبد الواد استخلصوا دونهم المنبات من ذوي منصور، فكانوا حلفا ليغمراسن وكانت سجلماسة في مجالاتهم، ومنقلب رحلتهم، وكانت قد صارت إلى بني مرين، ثم تغلب المنبات على سجلماسة وقتلوا عاملها علي بن عمر الذي كان في طاعة المرتضى سنة 662هـ، وآثروا يغمراسن بملكها، وأمكنوه من قيادتها فضبطها، وعقدها لولده يحي)[17].

الملاحظ أن الوجود التركي العثماني بالجزائر، ابتداء من القرن 10هـ/16م، وما فرضته الوضعية الإقليمية والدولية في حوض المتوسط من نجدة لمسلمي الأندلس، وازدياد تكالب القوى الصليبية الاستعمارية بقيادة أسبانيا على السواحل الجزائرية، انعكس سلبا على استمرار المجهودات والحرص على ضم صحراء المغرب الأوسط، مما أفسح المجال لقوى محلية وإقليمية لملء هذا الفراغ، وكأننا أمام تبادل أدوار؛ فالسلطة التركية الجزائرية، تحاول الاتجاه والتمدد غربا لدحر اسبانيا، في حين نجد دولة السعديين الصحراوية بالمغرب الأقصى، تتجه للسيطرة على الجنوب والجنوب الشرقي، على اعتبار أن الدولة الأولى بحرية بامتياز، والثانية برية – صحراوية بامتياز كذلك.

كما تتحدث المصادر، عن حملات أحمد المنصور العسكرية التي بعثها إلى الجنوب والشرق، كانت ضمن خطته في الوصول إلى السودان الغربي، ومما ساعده على ذلك غياب سلطة موحدة للقبائل المنتشرة هناك من عرب المعقل وغيرهم، سيما مع سقوط الدولة الزيانية، وانشغال الأتراك بجهادهم البحري في مواجهة أعداء الأمة، من الاسبانيين والبرتغاليين، فكانت بذلك مأوى للمعارضة السياسية، والقبائل الرافضة للهيمنة من المغربين الأوسط والأقصى.

بعث أحمد المنصور قائده عمر بن محمد بن عبو حاكم سجلماسة، للقيام بمهمة إخضاع

الساورة وتوات، حيث وصل فيجبج سنة 990 – 1582م، حسب الفشتالي في كتابه "مناهل الصفا في اخبار الملوك الشرفا"، (ثم ارتحل من بعد ذلك وعاج بالعساكر على بلاد فيجيج وأقام بها مدة موريا باقتضاء خراجها وشق عليه الزحف لتوات وتيكورارين فتلكأ يلتمس الوليجة من ذلك)[18] ولما تم له ما أراد زحف نحو توات وتيكورارين، حيث واجهه السكان باستماتة، إلى أن تمكن في النهاية من القضاء على المقاومة وأباد أهلها إبادة كاملة واحتل البلاد[19]، وتيكورارين وتغازة وكاغو وتمبكتو وجيني، وبذلك استطاع تكوين امبراطورية كبيرة مترامية الأطراف، وتسمى بالذهبي بسبب ما جناه من حملته على السودان الغربي في أواخر القرن 10هـ عام 999هـ1591م.

إن بسط نفوذ أحمد المنصور السعدي على واحات المغرب الأوسط بما فيها منطقة الساورة، يدخل في إطار إستراتيجيته، الرامية للسيطرة على الطرق التجارية الموصلة للسودان الغربي، بلاد الذهب؛ فإذا كانت هذا حال منطقة الساورة قبل مطلع القرن 11هـ، فما هي التحولات والتفاعلات السياسية والثقافية التي عرفتها، في بداية هذا القرن؟.

الحركية السياسية في منطقة الساورة خلال النصف الأول من القرن 11هـ.

أن موقع المنطقة يشكل خط التماس بين كتلتين سياسيتين متعاديتين، وهما الدولة الزيانية والمرينية، حيث سعت الدولة الزيانية إلى الحفاظ على نفوذها في هاته الجهات، لضمان خط سير آمن إلى بلاد ما وراء الصحراء، ومع سقوطها، فُسح المجال لسيطرة السعديين سيما مع عهد المنصور، حيث اجتمعت كل ظروف الثورة في منطقة الساورة ضد النفوذ السعدي المتهالك، بسبب الصراع على العرش بين أبناء المنصور، والمتخاذل أمام القوى الصليبية، مما دفع مثلا ابن أبي محلي إلى وصفهم بعبدة الصليب، ويصف السلطان العثماني أحمد الأول (1012–1026هـ/1603–1617م)، بملك البحرين وإمام الحرمين الشريفين، وأنه يمثل رأس عصابة الجهاد لذلك استنفرهم للجهاد ضد من كان يسميهم عبدة الصليب[20]، فضلا عن الحالة التي عبر عنها ابن أبي محلي بقوله: (والله لقد جاعت الناس من كل ناحية جوعا ما سمعنا به قط)[21]، حيث شهدت منطقة درعة والسوس، في نهاية القرن 10هـ أزمة اقتصادية خانقة، لقلة الأمطار وانتشار الجفاف، والأوبئة ومن شأن هذه الأزمة أن ترمي بظلالها على منطقة الساورة، إما بتراجع منسوب مياه واد الساورة، أو بتدفق أعدادا من سكان سجلماسة ودرعة إلى هاته المناطق، ومن جملة الذين نزلوا بالمنطقة ابن أبي محلي وعائلته.

إن دخول ابن أبي محلي لمنطقة الساورة ونزوله بقرى بني عباس سنة 1002هـ، كان إيذانا بانبعاث حركية سياسية، بدأت بمحاربة البدع والمناكر المنتشرة في المنطقة، وكاتب رؤساء القبائل يأمرهم بالمعروف ويحضهم على الاستمساك بالسنة، ولم يقتصر على ذلك

بل ادعى أنه المهدي المنتظر[22]، ثم تحولت حركته إلى مناهضة للسلطة السعدية باسم الجهاد، سرعان ماتحولت لفعل عسكري دك به أسوار مراكش.

عرف ابن أبي محلي بطموحه السياسي عندما نطق بعبارته المشهورة (أنا السلطان)[23]، يوم كان تلميذا بين يدي أستاذه محمد بن مبارك الزعري القبيل الجراري السبيل بفاس، كما عارض غزو المنصور السعدي للسودان، واعتبره من علامات الساعة لأهل المغرب الأقصى، ولتحقيق هذه الصيحة اتخذ سبيل إصلاح النفوس وتنقيتها من الشرور ومحاربة البدع في الساورة وتوات وغيرهما، وجاءته التزكية من العلماء، بالاعتراف له بـ"القطبانية" وأنه "شمس زمانه" عام 1005هـ، وطلب بعضهم البركة حسب الوفراني حيث قال بعضهم: (أردنا سيدي الانضمام في عندكم والانخراط في سلككم فلا تمنعونا ...سيدي ابعثوا لنا تسبيحه من أيديكم أو غير ذلك كشاشية من فوق رأسك لتكون عندي البركة)[24].

تمكن ابن أبي محلي من انتزاع اعتراف علماء وأعيان المنطقة، مما أكسبه أرضية واسعة، أهلته لأن يقوم بأدوار اجتماعية، كإصلاح ذات البين بين القبائل المتنازعة، حيث جاء في كتابه المنجنيق، (فما زلت كذلك حتى سعينا مع من شاء الله من أعيان تيجرارين ومرابطيها وفقهائها بإشارة منهم في الصلح بين قبائلها، لشر طويل كان بينهم أظلمت منه البلد وما حولها فنهضنا من الزاوية لذلك... عامدين شيخ دغاغ الشيخ علي بن موسى ببلده ليعقد الصلح عنده، فانعقد معه ومع شيوخ أهل حيحا ومن تبعهم من الفريقين فتم ذلك بحمد الله)[25].

السؤال الذي يطرح نفسه هنا، لماذا لم يمكث ابن أبي محلي ببلده سجلماسة، لمناهضة البدع، واتجه إلى بلاد القبلة أي واد الساورة؟ لقد تباينت التحليلات حول هذا الموضوع، حيث يرى العربي مزين، ذهاب ابن أبي محلي للساورة راجع لغياب السلطة المركزية السعدية هناك، علما أنه كان مطاردا من طرف السلطان أحمد المنصور، ويرى البعض أن ذلك مسعى منه للسيطرة على الطرق التجارية[26] وبالتالي يمكنه خنق السلطة السعدية اقتصاديا.

للإجابة على هذا السؤال لابد من توصيف الحالة الاجتماعية بسجلماسة، والنفسية لابن أبي محلي؛ فبلاده سجلماسة لم تكن تختلف عن واد الساورة في انتشار البدع والمناكر، والأزمة الاقتصادية التي حلت بها، بسبب غور مائها، لكن ما جعله يخرج منها يبدو في تقديرنا، ما لقاه من أهلها من تعنيف، عندما خرج في قومه بسجلماسة يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، رغم أن صاحب أبي بكر الدلاءي حاول ثنيه عن هذا المسعى، لأن في تقديره لم يحن بعد وقت تغيير المنكر، لكنه أصر على ذلك، وحاول استعجال الحسبة، وفي ذلك يقول صاحب النزهة، (فلما

أصبحا خرجا، فأما أبي بكر فانطلق ذاهبا ناحبة النهر ... أما ابن أبي محلي فتقدم لما هم به من الحسبة، فوقع في شر وخصام)[27]، وما دفعه إلى ذلك إلا نصيحة شيخه محمد بن مبارك الزعري، حينما وجهه لبلاد سجلماسة، قائلا لابن أبي محلي: (إن صلاحهم فيك، ثم ناولني عصاه وبرنسه ونعله من غير طلب مني ... وجعل على رأسي قلنسوة كالخرقة بيده اليمنى على رأسي)[28].

إن ارتباط هاتين الروايتين يظهر أن ابن أبي محلي كانت له تزكية من شيخه، للقيام بالدعوة في بلده سجلماسة، لكن الأمر لم يتيسر له، لكن كانت قناعته راسخة وثقته بنفسه عاليه لبلوغ المقصد، سيما أنه كان فقيها جليلا، له قلم بليغ ونفس عالية[29] كما أورد صاحب النزهة ، كما أننا نلمس من كتاباته، أنه يأبى أن يكون تابعا بل متبوعا، لذلك لم يجد بدا من مغادرة سجلماسة، بجميع عياله إلى واد الساورة، لعله يقوم بالمهمة التي أوكلها إليه شيخه ابن المبارك، ممزوجة بشيء من الطموح السياسي، وشطحات المتصوفة.

بالفعل وجد ابن أبي محلي الظروف مواتية لاستكمال مشروعه، سواء من الناحية السياسية أو الثقافية والدينية؛ فسياسيا المنطقة وكما أشرنا سابقا، هي تحت السيطرة السعدية، شانها في ذك شأن بلاد السودان الغربي، وموقف ابن أبي محلي من هذه السيطرة لا يختلف عن موقفه من سيطرة أحمد المنصور على السودان، وإلا لماذا تابع قبائل المنطقة ابن محلي، وهي على بيعة للسعديين، والأمر هنا لا يقف عند شيوخ القبائل بل تعداه إلى العلماء كما أشرنا سابقا، دون أن ننسى ما قام به عمال السعديين من تنكيل بأهالي المنطقة وتوات، وإن كان بعض الباحثين يحاولون تبرير المبايعة لابن أبي محلي بسذاجة أهل المنطقة، خاصة عند طرحه لقضية المهدوية، لكن الظروف المحلية بالمغرب بعد وفاة أحمد المنصور، والظروف الدولية، ساهمت بشكل كبير في نجاح دعوة ابن أبي محلي إلى حين.

ثار ابن أبي محلي بمنطقة الساورة ومن قرى بني عباس قاد ثورته، ضد السلطة السعدية بمراكش بقيادة السلطان زيدان، وبايعته قبائل الساورة وتوات وسانده العلماء؛ فتوجه بجيشه من بني عباس إلى بلده سجلماسة، حيث انضمت إليه قبائل تافيلالت، ودارت المعركة على الحاج المير خليفة السلطان زيدان على سجلماسة، ومما زاد من التفاف الناس حول ابن أبي محلي، ما أشيع عن جيشه من أن الرصاص كان يقع عليهم باردا ولا يضرهم، فضلا عن إقامته للعدل وتغيير المنكر حسب الوفراني، وذاع صيت انتصاره في البلدان، حتى قدمت عليه الوفود مهنئة من تلمسان، وبلاد القبلة – الساورة– وكان ممن قدم عليه الفقيه العلامة سعيد قدورة نزيل بني عباس من واد الساورة[30]، وغيرها

من المناطق مهنئة له على هذا الانتصار، وداعمة له في مواجهة التحرشات الصليبية على المدن والموانئ المغربية.

ساهمت المتغيرات الجديدة على الأرض في بلاد القبلة وتافيلالت، والدعوة إلى تغيير المنكر والجهاد، إلى تحقيق المزيد من الانتصارات، حيث تمكن الثائر إبن أبي محلي وأنصاره من الساورة، من الجمع بين سجلماسة ودرعة، بعد انتصارهم على جيش زيدان، فاشتدت شوكته وقوي أمره، وأمام تطمينات القائد يونس الأيسي المنشق عن زيدان تشجع ابن محلي على أخذ مراكش قاعدة السعديين؛ فزحف نحوها في جموع غفيرة، لم يتمكن حينها زيدان من لم شمل أتباعة وهرب إلى آسفي ودخل ابن محلي مدينته وقصره.

إن صيحة ابن أبي محلي المدوية "أنا السلطان"، وشعوره بالزهو ونشوة الانتصار، حال دون استكمال المشروع الجهادي الذي انطلق من أجله، والذي بايعته عليه قبائل الساورة ، إذ سرعان ما (دبت في رأسه نشوة الملك ونسي ما بنى عليه أمره من التقوى والنسك)[31]، وفي ذلك يقول الشيخ أبو العباس أحمد التواتي في رسالته المسماة "مقامة التحلي والتخلي من صحبة الشيخ أبي محلي" قال: (كان الفقيه أبو محلي في أول أمره فقيها صرفا ثم انتحل طريقة التصوف مدة حتى وقع على بعض الأحوال الربانية ولاحت له مخايل الولاية فانحشر الناس لزيارته أفواجا، وقصدوه فرادى وأزواجا، وبعد صيته وكثرت أتباعه)، قال: (فلما سمعت بذلك ذهبت إليه، وجلست عنده، إلى أن وجدته يشير إلى نفسه بأنه المهدي المعلوم المبشر به في صحيح الأحاديث؛ فتركته وراء ونبذته بالعراء)[32].

إن مثل هذه الممارسات تكون لها نتائج عكسية، إذا أخذنا بعين الاعتبار الدعوى التي انطلق من أجلها ابن أبي محلي من الساورة، إلى غاية أن دانت له البلاد واستحكم له السلطان، فما كان من زيدان الطريد إلا أن كتب إلى الفقيه أبي زكريا يحي بن عبد الله الحاحي ثم الداودي مستغيثا، ثم لحق به وهو بجبل درن بالسوس، فقال له زيدان: (إن بيعتي في أعناقكم وأنا بين أظهركم فيجب عليكم الذب عني ومقاتلة من ناوأني)[33]، لبى الحاحي الدعوة، وخرج لمقاتلة ابن أبي محلي في جيش من الشبانة، وبني جرار وهشتوكة وبني كنسوس، في الثامن من رمضان سنة 1022هـ، وكان اللقاء في قرب جبل جيليز المطل على مراكش، ولم يطل أمد الحرب حتى هلك ابن أبي محلي نزيل الساورة، واندعرت جموعه، ونهبت محلته واجتز رأسه وعلق على سور مراكش مع مجموعة من أصحابه، بمن فيهم علي المدعو سيدي ميمون ابن الشيخ أحمد بن موسى الكرزازي، وبذلك انتهت حركته السياسية، لكن أثاره الفكرية والعقدية ظلت حتى بعد وفاته بمنطقة الساورة، ويؤكد

ذلك اليفرني حين قال: (وحدثني من أثق به من أهل وادي الساورة أن فيهم إلى الآن من هو على هذا الاعتقاد)[34] .

على إثر هذه التطورات، تظهر لنا مدى فعالية الصحراء في رسم تاريخ المغرب الأقصى منذ العصر المرابطي، حيث كان التوجه دائما من الجنوب باتجاه الشمال، وهنا نجده من الساورة جنوب غرب المغرب الأوسط –بلاد القبلة– باتجاه قاعدة المغرب الأوسط.

الحركية الثقافية بمنطقة الساورة خلال النصف الأول من القرن 11هـ/17م:

شهدت المرحلة التي نحن بصدد دراستها، حركية سياسية هزت قاعدة المغرب الأقصى، وفي الوقت نفسه نجد حركية ثقافية أعطت البعد المجتمعي والقاعدة البشرية للفعل السياسي، وإن كان ابن أبي محلي واحدا ممن رسموا المشهد الثقافي والسياسي بالمنطقة، فإننا نجد إلى جانبه عددا من العلماء والفقهاء، الذين كان لهم دورهم أيضا في تشكيل الحركية الثقافية أو بالأحرى الدينية بمنطقة الساورة.

من هؤلاء العلماء سعيد بن إبراهيم المشهور بقدورة (ت 1066هـ)، نزيل بني عباس من واد الساورة؛ قال عنه محمد بن مخلوف، هو الفقيه المتصوف العلامة القدوة، تلقى تعلمه على يد سعيد المقري وإبراهيم الهشتوكي ومحمد بن القاسم المطماطي وآخرون، له تآليف عده منها شرح الصغرى وشرح خطبة اللقاني وشرح مسلم[35] .

أصبحت بني عباس خلال النصف الأول من القرن 11هـ17م، مقصدا لكل طالب علم بتلك الجهات إلى توات، وكان من أبرز من قصدها من الطلاب عبد الكريم بن محمد البكري، والذي يستنتج من كتابه "رحلة لطلب العلم"، أن عبد الكريم لم يكن يخطط للسفر إلى وادي الساورة في هذه المرحلة على الأقل، لولا شيخه الحسن بن أبي يحي الشريف، الذي عرض عليه السفر بمعيته من توات إلى واد الساورة، لكن يبدوا أن عبد الكريم تردد في البداية في مرافقة شيخه ، لاعتبارات تتعلق بقلة الزاد من جهة، أو لرغبته الملحة في طلب أصول العلم، والذي قد لا يجده بالساورة من جهة ثانية، لكن يبدو أن بن أبي يحي كان يتردد على بني عباس لحضور مجلس سعيد قدورة، أو كانت بينها علاقة قديمة، لذلك نجده يعد عبد الكريم أن ينزله موضعه عند العالم قدورة، فلما وصلا المكان المذكور عام 1017هـ[36]، قال له سعيد قدورة: لا أدخر عنك ما في الصدور ولا في السطور فمتى شئت من كتبي نخرجه لك لتطالع فيه، أوليس هو الذي كان يردد في مجلسه:

تنقل فلذة الفتى في التنقل ورد كل صاف لا ترد كل منهل

ففي الأرض أحباب وفيها منازل فلا تبك من ذكرى حبيب ومنزل

وإن صد من تهوى فصد كصده ولا تبكين يوما على مترحل

ولا تلتفت قول امرئ القيس إنه ضليل فمن ذا يقتدي بمضلل

قفا نبكي من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل[37].

ما يمكن أن نستنتجه من الرواية السابقة: حرص طالب العلم على ملاقاة العلماء وإن أبعدته عنه القفار، وتحمل الأفاضل والمحسنين النفقة على طالب العلم، كما أن العلاقات كانت طيبة ومتينة بين علماء توات ووادي الساورة. بالإضافة إلى ذلك نرى أن السفر من توات إلى بني عباس من وادي الساورة، يحتم على مرتاد هذا السبيل، أن يقف عند قراه وزواياه، خاصة زاوية الشيخ أحمد بن موسى بكرزاز. كما أن عبد الكريم لم يكن يعرف حتى ذلك الحين العالم سعيد قدورة، وإلا كيف يفكر في الذهاب إلى تلمسان دون أن يحضر مجلسه.

ومما يدل على النشاط العلمي ببني عباس، تلك الشروح التي كان يلقيها العالم سعيد قدورة على جمع من الطلاب، كشرحه لرسالة أبي زيد القيرواني، ونعتقد أن استقرار الطلبة بهذه الناحية إنما يعود إلى إلمام شيخهم بمختلف مقالات العلماء، مثل أبي العباس أحمد المعروف بالقلشاني وابن ناجي (ت 837هـ)، ويوسف بن عمر(ت761هـ)، واستشهاده بها في معرض شرحه، فقال حينها صاحب الرحلة: (فوقف خاطري فكأنه تفرس ما حاك به)، فلما انتهى من الدرس قال له: (هذا نحن اشتر ما رأيت، اتفقت أهل الفنون أنه لا يترك المحقق للمظنون، وذلك أن قراءتنا هذه محققة أنك تصيبها، وقراءة تلمسان قيل تصيبها وقيل تشتغل عنها بعد وصولها، بطلب المعاش أو النسخ أو العلائق، وهنا أنت بريئ من ذلك وأنا لك من الناصحين... فانتقلت عن العزيمة المذكورة)[38]، ومعنى ذلك أن العلوم التي يجدها الطالب في تلمسان هي موجود في بني عباس، مع ترك طلب المعاش وما ينتج عنه من هدر للطاقة والوقت، فكان منذ ذلك الوقت ملازما لشيخه يحفظ ويدون عنه، شرحه للألفية، حيث كان كما يقول: (يقرر المسألة الصعبة حتى يتركها كفلق الفجر للأذهان والأبصار)[39]، و"العيون الغامزة على خفايا الرامزة" على الخزرجية من وضع الدماميني (705-794هـ).

لم يكن العلم بهذه الأصقاع من واد الساورة يؤخذ تلقينا فقط، فالتدوين كان له حظه في تقييد ما يدلي به العلماء، وكان ذلك منهج تلامذة العالم قدورة، حصل أن يوما وجد عبد الكريم البكري يقيد في ورقة، فسأله ما ذاك، فناوله، فحرك رأسه وتبسم[40]، كما نجد منهج آخر متبع هو اختصار المتون تسهيلا للحفظ والإدراك، ولا يجيد ذلك إلا من فهمها فهما دقيقا، ومن ذلك نجد كتاب "النشر الداريني في اختصار الدماميني"، الذي اختصره صاحب الرحلة، لرفيقه محمد العربي السجلماسي، وبذلك صدقت فراسة شيخه وصاحب الفضل في قدومه لوادي الساورة أبي الحسن، حينما قال: (كل ما حصلته له، فكأنك حصلته لي، لأني آخذه عنه مهما احتجت)[41]. مما يعطي صورة أن بني عباس، كانت بحق "مدرسة"، تخرج منها علماء، أمثال عبد الكريم بن

محمد البكري الذي نعت ب"عالم توات".

إن المدة الطويلة التي مكثها عبد الكريم بن محمد البكري، إلى جوار شيخه العالم سعيد قدورة ببني عباس، والتي دامت حوالي ثلاث سنوات، تدل على مدى التواصل الذين كان بين الطالب وشيخه، والبيئة المساعدة على التروي لحين استكمال حاجياته من العلوم، فهناك إشارات واردة في الرحلة تدل على هذا التواصل والملازمة، حيث كان الشيخ لا يدخر أن يسوق لتلميذه عبد الكريم بن محمد البكري النصائح في كل مكان وزمان، فبينما هم عشية مستظلين بشجرة التين إلى جانب الرمل، قال له إياك إياك أن تقرأ الكبرى لمحمد بن يوسف السنوسي، أو تقرأ مختصره على المنطق، أحذرك من ذلك، وخذ بنصيحتي، ثم قال: أما الكبرى ففيها من الكلام بقدر هذا الرمل العظيم، وأما مختصره فما قرأته على المقري حتى رجعت جبهتي لقفاي، ويكفيك الخضري، في المنطق والعقيدة الصغرى، في التوحيد[42]، وبقدر هذه الملازمة كان الطالب يتحسس أحول شيخه، فرآه يوما حزينا فسأله عن سبب ذلك، فقال له: (إذا حشرت الخلائق غدا، وامتاز كل صنف على حدته، وانحاز العلماء في زمرتهم وحدهم، نخشى إن جئنا ندخل معهم في جملتهم، يطردوننا ويقولون لنا: اذهبوا عنا لستم منا، إنما أنتم مخلطون محرفون ملبسون)[43].

إلى جانب العالم سعيد قدورة، كان عبد الرحمن بن سليمان بن موسى الجومي[44]، يقوم بتقديم الدروس إلى الطلبة في تجويد القرآن والحساب والنحو والفقه والتاريخ[45]، كما كان بيته ملاذا لطلاب العلم وحتى العلماء، من طينة سعيد قدورة، الذي انتقل إلى داره من المصرية التي كان يسكنها.

إلى جانب هذين العالمين، نجد العربي بن أحمد بن أبي محلي السجلماسي الضالع في فهم الأصول والفصول، وكان من رفقاء عبد الكريم البكري في طلب العلم ببني عباس من وادي الساورة، لقيه عام 1017هـ، وأخذ عنه بعض المختصر في الفقه والخزرجية وبعض قواعد المنطق، كما أخذ عنه بعض رجز التلمساني في الفرائض.

الهوامش:

[1]- ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون،المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي، أ خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، طبعة **2000**، ج**6** ص**88**

[2]- يقصد بها بودة وهي من قرى توات حاليا

[3]- ابن خلدون – نفس المصدر- ج**6** ص**134**

[4]- اب خلدون – نفس المصدر- ج**7**، ص**77**

[5]- أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي، الرحلة العياشية **1661–1663**م، حققها وقدم لها،د سعيد الفاضلي و د سليمان القرشي، ص الأولى **2006**، ج**1**، ص **56**.

[6]- أبو سالم العياشي –نفس المصدر- ص **76**.

[7]- هذه التسمية لازالت تطلق اليوم من طرف سكان قصر أنفيد وأقدال وهما قصرين تابعين لمنطقة الواتة، على بعض القصور وهي أماس بوحديد والواتة قصر.

[8] أبو سالم العياشي –نفس المصدر- ص ص **76**- **78**

[9]- أبو سالم العياشي –نفس المصدر- ص**76**.

[10]- أبو العباس أحمد بن عبدالله بن القاضي بن أبي محلي السجلماسي، إصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت، مخطوط، بحوزتنا نسخة إلكترونية. ص**224**

[11]- عزيز سالم الترء الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية ، ترجمة محمود علي عامر، دار النهضة العربية، الطبعة الأولى **1989**، ص**347**

[12]- ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، دار المسيرة، بيروت، **1993**، ص **42**.

[13]- ابن خلدون العبر – مصدر سابق- ج**6** ص **172**. الباروني الأزهار الرياضية في ائمة وملوك الإباضية، المطبعة البارونية (ب – ت) ص **96**.

[14]- القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة إنشا، تحقيق وتعليق: اسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، **1989**، ج**5** ، ص**166**. ابن عذاري، البيان المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج.س كولان وليفي بروفنسال. دار الثقافة، بيروت. الطبعة الثانية، **1980**، ج**1** ص**185**

[15]- ابن خلدون – مصدر سابق- ج**6** ص**174**.

[16]- هناك بعض التجمعات اليوم بمنطقة الساورة، تنسب نفسها إلى عرب المعقل

[17]- ابن خلدون –مصدر سابق- ، ج**7** ص**114**.

[18]- أحمد مزيان، فيجيج مساهمة في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال القرن **19**، طبعة **1988**، ص**84**.

[19]- عزيز سالم التر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ص**342**.

[20]- فؤاد خالد أطحيح، العلاقات المغربية العثمانية خلال القرن **16** ، مجلة الفسطاط

[21]- ابن أبي محلي، الإصليت، ص**33**.

[22]- محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله الوفراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، صحح عباراته التاريخية السيد هوداس، طبعة **1888**. ص **205**.

[23]- الحسن اليوسي، المحاضرات في اللغة والأدب، تحقيق وشرح محمد حجي،وأحمد الشرقاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت**1982**، ج**1**، ص**262**.

[24]- الوفراني –المصدر السابق – ص202.
[25]- عبد المجيد قدوري، ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليت الخريت، منشورات عكاظ، ص59.
[26]- عبد المجيد قدوري – نفس المرجع- ص ص 13 14
[27]- الوفراني –المصدر السابق – ص 205
[28]- الوفراني – نفس المصدر – ص 202
[29]- الوفراني – نفس المصدر – والصفحة.
[30]- الوفراني – نفس المصدر – ص207
[31]- الوفراني – نفس المصدر – والصفحة.
[32]- أبو العباس الناصري، الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى، ج 6 ، ص28، تحقبق وتعليق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب الدار البيضاء، 1997.
[33]- الناصري- نفس المصدر- ج6 ص32
[34]- الناصري- نفس المصدر- ج6 ص33
[35]- محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، 309.
[36]- عبد الكريم بن محمد البكري سلسلة علماء توات، عالم توات الشيخ يد عبد الكريم بن محمد البكري ورحلته في طلب العلم، دراسة وتحقيق: عبد الحميد البكري، دار الغرب، دون تاريخ الطبع، ص 125.
[37]- عبد الكريم بن محمد البكري – نفس المصدر – ص83
[38]- عبد الكريم بن محمد البكري – نفس المصدر – ص 139
[39]- عبد الكريم بن محمد البكري – نفس المصدر – ص 128
[40]- عبد الكريم بن محمد البكري – نفس المصدر – ص 132
[41]- عبد الكريم بن محمد البكري – نفس المصدر – ص 126
[42]- عبد الكريم بن محمد البكري – نفس المصدر – ص 138
[43]- عبد الكريم بن محمد البكري – نفس المصدر – ص 144.
[44]- لم نعثر بعد على ترجمة لهذه الشخصية.
[45]- عبد الكريم بن محمد البكري – نفس المصدر – ص85